إلى الأم الفاضلة

سهى عبد الحميد القضماني

ننقل فيما يلي رسالة " إلى الأم الفاضلة " من كتاب " الموت تحفة المؤمن " الذي صدر عن المركز الإسلامي في آخن–مسجد بلال في شهر أيار/مايو من العام الجاري .

إلى الأم التي لم تحملني برحمها وحملت كلي فكنت بعضاً منها .

إلى السيدة التي ما رأيتها قطّ بحياتي ، ومع ذلك كانت رفيقتي الدائمة وأنا أتمتع بأروع نعمة وهبني الله إياها ، فكانت منتهى سعادتي ، وازدادت معرفتي بها ، وقوي عمق إحساسي بجهادها ، وأنا أتعرف على أمومتي بثقل واجباتها وبروعة غاياتها .

إلى الأم التي حملت ابنها وهناً على وهن ، وغذته من خلاصة دمها وصفوة ماهيتها ...

عانت من أجله

وأشرفت على نموه

وأحاطت بالعطف طفولته

ودعمته بتأسيس خلقه وبناء طينته

وعندما اشتد عوده ...

وظهرت وردته

وما عاد جنيناً محبوساً في رحمه

ولا مقيداً بأضلاع أمه

ما عاد صغيراً تقدر أن تحمله

وأصبحت أكبر منكِ قامته

حزم حقيبته

وتوجه حيث شاء له ولك قدره

بقوتك ... بشبابك ... بعافيتك كبرته

وعندما نما عوده واستوى

أدار ظهره ومشى

وكان وداعك له آخر لقاء لك به

وبقي موجوداً في حنانك وذاكرتك رغم سفره

يحتج قربه من روحك على بُعده

وكنت دائماً بعد فراقه تبكينه

تشتاقين إليه وتفتقدينه

و لم تعلمي يوماً ما الذنب الذي ارتكبتيه

لتمنعي مدى حياتك من رؤيته

مع كل وجبة طهوها لأولادك تزرف دموعك السخية

احتلال مداد كلماتك الأبية

تكتبين بالأنين ... قصة الحنين

كلما فاحت روائح طهوك الشهية

تتحجر في فمك اللقمة تمنعها من السير غصة علقمية

كيف يعيش ...كيف ينام ... تطرحين على نفسك كل يوم أسئلة شقية

ومع تكبيرة العيد

ينصهر في عزم صبرك الحديد

ويمضي عيد وراء عيد وأمومتك لا تكف عن النداء

تفتقدينه على مائدة رمضان العَامِرة بما في قلبك من انطفاء

يصوم الناس عن الطعام والشراب وتصومين عن البنوة ودفء اللقاء

وتمني نفسك بلا انقطاع بعودته

كنت دائمة الرضا عنه

ومضت السنوات ... وأنت تلعقين المرارة وتبتسمين

وتهدئين من لوعة أبيه وعلى آهاتك الملتهبة تعضين

تبثين شكواك لله المتين

كانت حياتك ملحمة... عمرها ما بلغ عمرك من السنين

لا تريدين لنفسك شيئاً ... وتريدين أن تعطي أولادك كل الأنا التي تملكين

والأم لا تقدر أن تحب ولداً أكثر من ولد

لكن الأولاد في حبهم لأمهم يتفاوتون

وفي خضوعهم لها وعمق الإحساس بها يتباينون

يروي لي إخوته وتروي لي أحداث حياته أنه كان أكثر أولادك حباً لك وكسباً لرضاك

وعندما طالت غربته وتوهج الحنين

ذابت شمعتك وعليها أبداً لم تحزني

بل يفوقهم عطاءٌ منك ذاك ما كنت منه تتألمين

وعلى أنك لم تتعلمي القراءة والكتابة

إرادة العطاء بأمومتك رسمت له رسالة ...

تمنين نفسك بعودته ليرد لك بعضاً من خصوصية أمومتك المحتلة

لكن الغياب طال ...

والحواجز ارتفعت ... وشدت عليك الحبال

زرعتِ ... زرعتِ ... وقبل أن تحصدي رحلتِ

شيعتك دمشق أماً عظيمة

وافتقدت جنازتك أجمل سنابلك ...

وطواك الموت وطوى معه لوعة أمومتك

وبقي شامخاً ... مرموقاً جنديك المجهول ...

تاركاً في أحداث حياة من عرفك ومن لم يعرفك أصالة بصماتك

ولما بلغ ذروة رجولته ... أخذني لأقطف أنا ثمرتك

أنت التي انتظرتِ وأنا التي استقبلتُ

أنت التي زرعتِ وأنا التي حَصدت

أنت التي طهوتِ وأنا التي تغذيت وتقويت
أنت التي خيطت وأنا التي لبست واستترت وتدفأت
أنت التي تعرفت عليك بعمق طوال معاشرتي لزوجي
أدبت فأحسنتِ
ربيت فأفلحت
أعطيت ... أعطيت ... أعطيت
وأنا التي أخذت
ووفرت من دمك ... وعناء رحمك
وجهد تربيتك ... والصبر على كل مرّ في حياتك
وقدمت لي هذا الرصيد ... لأنفقه كيفما شئت
وقبل أن أغادر البيت الذي عليه تعودت وبساكنيه تعلقت
نصحتني أمي أن أسأل ربي فاستخرت

كانت رؤية لن أنساها تشبثت بذاكرتي
سيدة في زورق على وجه الماء تناديني
وأخاف أن أقفز لأسكنه معها ... بلهفة وحب فتحت ذراعيها
نادتني باسمي وطمأنتني
وفي أحضانها ارتميت فضمتني
وعندما اقترنت بزوجي أهداني صورتك الحية
كنت أنت هي

ستبقى تلك الرؤية في ذاكرتي واضحة جلية .

وكانت العشرون عاماً التي عشتها مع ابنك مرآة مصداقيتك

كان دائم الذكر لك ولفضلك ...

وكنت أحسّ أن فضلك عليه هو عين فضلك عليَّ ؟

وعندما كنا نرشف القهوة معاً ، وتفوح رائحة الشام الذكية

والياسمين الأبية

كان يحدثني عنك بإعجاب وتقدير ، ويتغنى بحبك وحنانك

ويروي لي حدثاً من أحداث حكايتك

ويصمت طويلاً ، ويتنهد تنهيدتك ...

ويقول لي ... أمي هي شامي ...

كان باراً بك بعد رحيلك كما كان باراً لك بوجودك ...

دائم الدعاء لك بالمغفرة

ومقدراً جهدك بحسن خلقه

وأثناء مسيرته على درب التربية

وما الذي كنت تريدين منه غير استقامته

وما الذي كنت تتمنين له سوى أن يعمل بدنياه لآخرته

صبرت فصبر

شكرت فشكر ...

وأجمل غزل كان يسعدني منه

عندما يُشبهني بصفة من صفاتك

أو بسجية من سجاياك

كنت أراها شهادة لي

لأني أحس بعمق مودته لك

بعطائك الصامت

وبحلمك الجبار

وبتضحيتك الرائعة المثال

ومنذ أن أهداني صورتك ... وضعتها علامة في كل كتاب كنت أقرأه

حتى أراقب طاغوت أنوثتي وجبروت إنسانيتي إن استيقظ فيَّ ...

وحتى أحس بقدسية إنتاجك فلا أجرح ولا أظلم ولا أطغى

وليتني كنت معه كما كان يجب أن أكون

أرجو الله أن يكون رغم تقصيري راضياً عني

وكلما أنجبت طفلاً ... وعانيت جزءاً مما عانيت

كلما تعرفت عليك أكثر

وأحببتك حباً أكبر

إلى أن تحققت رؤيتي ، وما قلته لي عند استخارتي

بكل الذوبان بيننا وصل بي إلى ذروة الفرح والأمان

وقمة السكينة والاطمئنان

واتجهنا معاً بثقة إلى غاية المودة

بكل ما في الحب من روعة الإيثار

ولتعلو مراتبه ومراتبك ... اُبتلي وامتحن ...
وليس للمؤمن نصيب في دنيا أشقى الناس بها أرغب الناس فيها ...
دبت في أوصاله جنود المرض ...
كنتُ أبث لك أحزاني ومخاوفي
كنتِ أقربَ المقربين إليَّ
إلى أن أغمض عينيه ورحل
وعاد جنيناً إلى أصل الأرحام في أطباق الثرى
عرفتك منه
وعرفته منك
لن أنساه ولن أنساك

وإن أكرمني الله بالقرب من منْزلتك
ومتعني برؤيتك
سأُقبّلها بكل حب وامتنان يديكِ
وهبتيني أثمن ما كان في حياتي ... ما أغلاها حصالتك
أنت صاحبة الفضل الخفية
أنت صائغة سبيكتي الخالصة
أشكرك بكلمة ملء حروفها بالامتنان مبللة
ولا أراك وأمثالك إلا بطلة ...
ولابد أن روحك بروحه الآن ملتقية

وستبقين أنت وأمهات خرجوا من معاهدهم أمثال تلك القدوة

نِعم الأم ... نِعم المربية

جزاك الله عنه وعني كل الثواب والمغفرة

أترك رسمك للكلمات التي تخفي وراء أبجديتها صورة شاكية

معلماً من معالم الأمومة السامية

فأنت الأم التي حملت وربت كلُ أنا بعض منه

ربيتني به ، وأعطيتني الكثير من خلاله

وجاء دوري لأنسج ما نسجته

وأعطي ما أعطيت

وليتني أفلح كما أفلحتِ

سأروي لأولادي قصتك

ليروي أولادي لأحفادي عظمة بساطتك

فغزارة حبك كانت سر نجاح تربيتك

وليدعون لك دعوة صالحة ترد جزءاً يسيراً من فضلك

وستبقين لسيل عواطفي نحو أولادي نِعم المستشار

رحمك الله ... سيدة من سيدات دمشق الفاضلة

عزيزة القصار .

ابنتك سهى